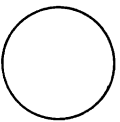

القسم الأول

العودة إلى الذات

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

عندما تتحد الصفوف :

حضرات السادة المحترمين ،أيتها السيدات أيها السادة ، أعزائى الطلاب . إننى سعيد لأننى ولأول مرة فى هذا المكان ــ وهو بيتى الروحى والمعنوى ــ أرى أناسا هم أهلى فى الروح وفى المعنى ، وهم فقط الذين يمنحون حياتى معنى وهدفا واتجاها وفلسفة للبقاء .

إن مجتمعنا مثل كل مجتمع آخر ، وزماننا مثل كل زمان آخر ، قد تقولبا واستقطبت أفكارهما ، وشكلت عقائدهما ، فهما ذوا أنماط معينة واتجاهات محددة ، فالمتدين والمفكر والمتعلم والعامى والصفوة والرجعى والتقدمى ، لكل منهم قالبه المحدد وعلاقاته المعلومة ولغاته المفهومة ، بحيث يفهم كل منهم الآخر . وكل من يريد أن يكون موفقا فى هذا العصر أو عنصرا مفهوما فى المجتمع عليه أن يكون ذا نمط فكرى يصل به إلى هذا النجاح ، عليه أن يرفع لافتته الفكرية ، وكما يقول الكتاب التقدميون اليوم : على كل فنان أو كاتب أن يحدد انتماءه الطبقى – وهذا قول صادق للغاية ، فان على كل فرد أن يحدد قاعدته الاجتماعية ، وأية جماعة ينتمى اليها بحيث يجد له مؤيدين محددين ومتميزين فى المجتمع .

وكل شاعر أو كاتب أو مفكر أعلن عن قاعدته الاجتماعية قائلا : إننى متدين أو مفكر علمانى أو اعتنق أيديولوجية كذا ، أو أرتبط بقطب كذا أو بجناح كذا ، سوف يفهمه الناس ببساطة ويدركون مايقول ، وبالتالى سوف يجد من

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

يؤيدونه فى فكره . لكن بعضهم لايجدون الفرصة لاختيار قالب من بين هذه القوالب الموجودة سواء كانت الدفاع عن الدين أو رفضه ، أو ممارسة الفكر ، أو اعتناق نظرية من النظريات أو الارتباط بقطب من الأقطاب أو جناح من الأجنحة ، أو تحديد رؤية معينة أو عقيدة معينة أو اتجاه معين ، وعلى كل حال فأمثال هؤلاء إذا انطلقوا من الدين فإن رجال الدين هم أول من يسىء فهمهم ، وإذا تحدثوا منطلقين من فكر مستنير وطرحوا قضايا على أساسه فإن المفكرين هم أول من يسىء فهمهم ويكيل لهم التهم .

مثل هؤلاء غالبا مايقون وحداء غرباء أسىء فهمهم ، ولايملكون الضوابط المعلومة للاختيار ، وهم بالقطع أناس محبطون ، إنهم عندما ينظرون إلى كل الأجنحة المختلفة يدركون أنهم لايستطيعون الانضمام إلى جناح مابنسبة مائة فى المائة ، وعندما ينظرون إلى الأيديولوجيات التى تعد آخر ماظهر ومن ثم باتت تسيطر ، لايستطيعون اعتناق واحدة يعرفون بها فى المجتمع بنسبة مائة فى المائة ، وعندما ينظرون إلى ماهو باسم الدين ، لايستطيعون التسليم له لأنه تقليدى ومخدر . مثل هؤلاء الناس عندما ينظرون إلى المجتمع ، ويرون أن هناك عوامل صارت عبر عدد من القرون سببا فى انحطاط البشر ، وارتبطت برباط وثيق بأفكارهم وآدابهم ومعنوياتهم ، يخرجون بنتيجة وحيدة فحواها أنه ينبغى أن تمز قرون عديدة حتى يتبدل مارسخ فى أفكار الناس وصار سببا فى جمودهم وركودهم إلى وعى وحركة وفكر صحيح . لكن الواقع يبين لنا خلاف ذلك : ففى آسيا وأمريكا اللاتينية كانت هناك دول تعتبر منتدى قمار للغرب ، دول كانت بؤرة فساد خاصة للرأسماليين الغربيين ، دول كانت قد وضعت أعظم مواهبها وأعظم أحاسيسها فى خدمة العمالة للأجنبى ، دول كانت عبر قرون من الاستعمار قد اعتادت على عبادة الأجنبى والاستسلام أمام قوة الأجنبى ، بل وأخذت هى نفسها تؤمن بذلتها وضعة أصلها ، ولو أن عالم اجتماع نظر فى سحنة هذا المجتمع ، لم يكن ليحدوه أدنى أمل فى أن حركة ماسوف تحدث فى هذا المجتمع ولعدة قرون تالية .

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

معجزة الإيمان والوعى :

أجل ، فى مثل هذه المجتمعات ، حدثت فجأة معجزة ، وأية معجزة مثيرة للدهشة لم يستطع علماء الاجتماع فهمها ، فإن المجتمع الذى كان يحس بالفساد حتى أعمق أعماقه وبالاحتراء والجهل والغفلة حتى النخاع ، وبتكرار ماهو مكرر وعبادة التقليد وعبادة الوهم ، والعبودية ، قد نهض فجأة وجرت فى عروقه دماء الحياة الحارة ، فتحرك ، وألقى من فوق وجهه بهذا القناع المبتذل ، وفى الجيل نفسه اتخذ سحنة إنسان حر متيقظ ومسئول ومصمم ، ومن أعمق أعماق مجتمع ميت ليس إلا مقبرة تاريخ ومرحاض له ، ظهرت الحياة فجأة ، وظهرت الحركة .

فجأة ، نفخ عامل روحى فى هذه الأجساد الذابلة النحيلة بحيث أحدث هذه الحركة، ومنتديات قمار الغرب الشهيرة نفسها، وتلك الدول نفسها التى كانت بؤرة فساد وقمار وتهريب دولى ، تبدلت فجأة إلى مجتمع من الحياة والفكر والحركة والوعى . لاشك أن سبب المعجزة هنا عامل واحد وهو الوعى ، لكن ليس ذلك الوعى الذى يرد فى المنشورات الدورية ، أو الذى يستورد طبقا للموضة ، أو يشكل مثل صندوق من المواد الغذائية وتوضع عليه علامته التجارية ويصل من الغرب فيستهلكه المفكرون ، أو يصير مفكرا وواعيا كل من يستهلكه ، لكنه الوعى المستقل لجماعة من الجماعات تصل إلى وعيها فجأة على أساس من تاريخها وتناقضاتها ومشكلاتها ، وبالتأثير على عوامل انحطاط المجتمع فيها ، هذا الوعى يطلق شرارة فى كل مجتمعها بحيث يصير كل فرد فيها « بروميثيوس » الذى كان يقبس النار الإلهية ويأتى بها إلى أرضه ويوصلها إلى قومه فيهتك أستار الظلمة ويبدد برودة الشتاء ، وتنتشر هذه الشرارة ، ثم تجذب أنظار المواهب والأبطال والتاريخ وجهودهم إليها ، هذه الشرارة هى الوعى المقترن بالعشق والإيمان ، هذا هو نوع الوعى الذى يحدث فيخلص المجتمع الذى كان قد توقف عدة مئات من السنين بل عدة آلاف من السنين ، توقف إلى درجة أن كل المفكرين وعلماء الاجتماع فيه بل حتى الذين يتصفون بالشوفينية كانوا يقرون بتفاهتهم ويعوون فى عوالمهم الخاصة ، بل إلى درجة أن العالم كله كان يعتبره مجتمعا مبتذلا خلق أصلا لكى يركبه الاستعمار

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الغربى ، ذلك الوعى يحدث فيه قوة معنوية تفعل فعل سحر مثير للدهشة ، فتقضى على كل الأشياء التى كان قد اشتد رسوخها فى علاقاته الاجتماعية عبر ألف سنة بل عبر آلاف السنين ، وصارت جزءا من نظامه الحاكم الموروث ومعتقداته الدينية الموروثة والتقليدية ، فراح فى سبات عميق حبيس هذه القوالب القديمة ، فإذا به ينتقل به من الموت إلى الحياة ومن السكون إلى الحركة .

هذه هى التجربة التى كانت أمام الجيل الشاب بعد الحرب الثانية ، ومنحت كل المفكرين المحبطين الأمل ، وعلى كل المفكرين الذين لايفكرون فى مستوى تحليل الواقع سطحيا ، ولايصابون نتيجة لذلك باليأس الاجتماعى أو اليأس الفلسفى أن يؤمنوا بأنه من الممكن أن تحدث هذه الحركة العظيمة المعجزة فى مجتمعاتهم ، وبالرغم من كل عوامل الإحباط والتناقض فيها تحولها من أجنحة متفرقة فى سبيلها إلى التفرق والتلاشى إلى مجتمعات سعيدة ، تقف على قدمها كمجتمعات إنسانية ، إنسانية بالمعنى الذى يقصده فرانز فانون بقوله : مجتمع ذو عرق جديد وجلد جديد وفكر جديد .

قلت فى طهران منذ فترة:إننى لم أكن قد صادفت هذه المعجزة العظيمة طوال عمرى ، ولم تبد هذه الظاهرة أمامى فى سنوات(٥٥ و٥٧ و٥٨) وربما (٦٠). حتى ارنست رينان المفكر الإنسانى كان يقول : إن الغرب هو جنس أصحاب العمل وان الشرق هو جنس الفعلة ، ومن هنا فإن الطبيعة تكثر فى إعداد جنس الفعلة وتقلل من أعداد جنس أصحاب العمل . وكان السيد زيجفريد يقول : إن للغربى عقلا صناعيا وإداريا خلاقا للحضارة ، أما الشرقى فذو عقل عاطفى متوسط عاجز عن الفكر والنظام والاستنتاج العصرى ، وكان موريس تورز رئيس الحزب الشيوعى الفرنسى واحد عظماء قادة الحركة الشيوعية الدولية ، بل واحد من أبرز الوجوه المعدودة البارزة فى هذه الحركة يقول : إن الناس فى الجزائر وإفريقيا وشمال إفريقيا ليسوا شعوبا بل إنهم لايزالون فى دور التكوين ، أى أن سيطرة الاستعمار الفرنسى عليها ذات هدف ، ولابد لهؤلاء من أن يعيشوا فترة فى أحضان الإمبريالية الأم القاسية ويربوا على يديها من أجل أن يصيروا شعوبا متحضرة ، هذا هو فكر السيد الاشتراكى ، ثم رأوا كيف أن هذه الأمة نفسهاالتى كانوا يطلقون عليها اسم الجرذ الصحراوى ، كم من

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

التغير أحدثته فى نفسها بمعجزة الوعى المقترن بالعشق والإيمان .

وأنا نفسى رأيت فرنسا التى كان كل فخرها أنها مهد الحرية وحرية الفكر على مستوى العالم ، وباريس التى كانت تفخر بأنه فى كل مقهى من مقاهيها كانت تنعقد نطفة واحدة من الثورات العظيمة فى العالم ، باريس التى كانت تقول أن أحضانها مفتوحة لكل الأيديولوجيات وكل الحركات وكل الثورات ، باريس التى كانت تعتقد أنها قوية لدرجة أن تتقبل دون خوف أكثر الأفكار والمدارس الفكرية والقوى العالمية الثورية ، باريس التى كانت تحتوى على كل هذا العدد من المكاتب والصحف الناطقة بألسنة القوى الفكرية والأيدلوجية من قبيل : مكتب الملكيين مؤيدى أسرة لويس والمطالبين بإعادة الملكية ، والعدميين الفوضويين وحتى أتباع فلسفة اليوجا والثوريين الأفارقة والتابعين لأمريكا اللاتينية وما إلى ذلك ، باريس التى كان فخرها هو هذا ، وكانت تنشد أراجيز الفخار أن فيها حضارة أوربية وديموقراطية غربية وليبرالية قومية ، أجل باريس نفسها التى لم تكن قد أقامت علاقة سياسية بعد مع الدول الثورية فى آسيا لكنها تطبع وتنشر صحفها ، فى باريس هذه نفسها ذهبت ذات يوم لأشترى مجلة ثورية أفريقية ، فقيل إن وزارة الثقافة الفرنسية قد صادرتها لأنها ذات أثر منحرف وسيء فى أفكار الشباب والمفكرين وأنها من عوامل الخطر .

إذن : كيف حدث فى أمة ليس لها حق الحديث ، اللهم إلا بما يوضع فى أفواهها من كلمات تأتى من لندن وباريس وامستردام على حدقول سارتر ، أن اجتمع بعض « الأولاد » وأصدروا مجلة تخشى فرنسا من انتشارها فيها ؟

هذه هى المعجزة التى يصنعها الإيمان والوعى ، هو الذى يجعل الخيوط التى نسجها النساجون المسيطرون عبر التاريخ بالرغم من مجتمع ما أنكاثا ويحرقها ويجعلها رمادا ... ونموذج لكل أولئك الذين لايريدون أن يمكنوا لقالب من القوالب القديمة أو المستوردة من أوربا ، ويريدون أن يفكروا بأنفسهم ويفهموا ويختاروا ، ولايقون مجبرين فى مجتمع لاملاذ له ولا قاعدة ولاموقف ، ويبين لهم أن عليهم أن يأملوا فى أنهم لو استقاموا وعملوا عملا متواصلا ، وصاروا جديرين ، يستطيعون أن يستردوا ماحرموا منه من قيم ، أو فى كلمة واحدة يعيشون ، ويبنون حياتهم على أساس من الفكر ، ويتنفسون

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

على أساس من إيمانهم ، ويموتون على أساس من إيمانهم ، ينبغى أن يأملوا فى أن شرارة العشق والوعى تتألق فى قلب هذا الجمود والنوم والفرقة فجأة ، وفجأة أيضا تذيب جمود الشكل المكتئب الذى يجعل المفكر السطحى يائسا ، ومن بين الانحطاط ، وجهل عدم الأصالة وعدم المسئولية ، يقوم فجأة مجتمع ذو جسد واحد وهدف واحد وحركة واحدة على أساس وعى مقترن بالعشق والقوة .

حسنا ، أريد هنا أن أطرح قضية أساسية ، أتناول قضية أساسية مطروحة الآن بين المفكرين ، بين مفكرى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وطرحت أخيرا فى ايران[1] وهى قضية : العودة إلى الذات . وفى البداية ينبغى أن أوضح أننى إن كنت أنطلق من الدين وأنطلق من الإسلام فإن منطلقى إسلام معدل أو لحقه الإصلاح ، وأعيد فيه النظر بوعى ومرتكز على حركة نهضة إسلامية ، هذه الرؤية الدينية لم تتأت لى عن طريق أننى جلست ووضعت أمامى الفرق المختلفة والأديان المختلفة ، ثم درستها واحدا بعد الآخر ، وبعدها اعتقدت فى الإسلام « كدين أسمى » لكنى سرت فى طريق آخر . وإنى إذ أعلن هذا الطريق هنا ، فلأن المفكرين أو الطلاب الذين لايعتقدون فى الدين هم الذين يستطيعون الإنصات إلى دعوتى ويستطيعون قبولها ، بل إن كل مفكر مستنير وذى وعى مستقل ويريد أن يؤدى خدمة لوطنه ومجتمعه ، ويحس برسالته الفكرية تجاه جيله وعصره ، يستطيع أن يسلك هذا الطريق نفسه الذى سلكناه . الخلاصة أننى لأطرح قضية الدين فى المجتمع بهذا الشكل على أساس فكرة ما أو عاطفة ما، لأن منطلقى من الدين من نوع يستطيع معه حتى مفكر علمانى أن يأتى وينطلق معى منه ، والفرق بينى وبينه أن منطلقى يعد إيمانا ومسئولية اجتماعية ، بينما يستطيع ذلك المفكر أن يشترك معى من موقع المسئولية الاجتماعية فحسب .

على كل حال ، أريد هنا كمفكر مسئول عن عصره وجيله أن أحدد الهدف من مسئوليتنا ، وأن أحدد الدور الاجتماعى الملقى على عواتق المفكرين

---

(١) بالرغم من أنها طرحت فى إيران قبل أن يطرحها المفكرون الأوربيون أو يطرحها الأفارقة على الخصوص إلا أنها نسيت ، ولكنها الآن وبعد أن طرحت فى أوربا سرعان مابلغت تأثيراتها وذيولها إلى محافل المفكرين فى إيران أيضا .

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

والمتعلمين والمثقفين فى المجتمعات الآسيوية أو الإسلامية . [1] وذلك على أساس الشعار نفسه الذى قبله المفكرون الدينيون وغير الدينيين ــ خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية – مثل عمر اوزجان وإيما سيزار وفرانز فانون ويوجين يونسكو ، فهم يعتقدون أن من حق كل مجتمع أن يكون المفكر فيه مرتكزا على تاريخه وثقافته ، وعليه أن يلعب دوره كمفكر ويقوم برسالته على أساس تاريخ السواد الأعظم وثقافته ولغته ، أجل على أساس هذه المبادئ الثلاثة .

على كل حال فإن شعار العودة إلى الذات ، شعار لم يطرح الآن فى عالم المتدينين ، بل إن أكثر المفكرين التقدميين العلمانيين من أمثال إيما سيزار وفى إفريقيا مثل فرانز فانون وجوليوس نيريرى وجومو كينياتا وسنغور فى السنغال [2] وكاتب ياسين الجزائرى وجلال آل أحمد [3] فى إيران هم الذين طرحوا هذه القضية لأول مرة . هؤلاء هم الذين طرحوا شعار العودة إلى الذات ،

---

(١) لاشأن لنا بما قالوا ، أو بما كتبوا فى منشورات مملاة من الخارج ووزعوه وفرضوه كأيديولوجية .

(٢) المترجم : على مدى هذا الكتاب يذكر الزعماء الأفارقة الذين أمسكوا بمقاليد الحكم فى بلادهم بعد استقلالها الصورى على أساس أنهم من كبار المفكرين الأصلاء ، فى حين أنه مهما كانت لبعضهم بعض الاجتهادات الفكرية علينا أن نلاحظ عدة نقاط من أهمهما أن أغلب هؤلاء الزعماء قد تقلدوا الزعامة فى بلادهم على أساس اختيار شعبى عام أو سابقة معتدة فى الكفاح بل كان معظمهم مباركا من السلطة الاستعمارية ربيبا لها ، اما فى جيشها أو فى جامعاتها ، ومعظمهم الجيل الأول المرتد من أسر مسلمة ، ولاأدرى كيف فات على شريعتى أن معظم هؤلاء مسيحيون من أبوين مسلمين ، وأن بعضهم يحكم شعوبا أغلبيتها مسلمة وهو مسيحى ، وجواز السلطة الوحيد أنه مسيحى ، أما « أفريقانية » سنغور فهى « أفريكانية » فرنسية للاستهلاك العالمى وهدفها الوحيد الحيلولة دون أفريقيا وواحد من أهم مقومات ثقافتها وهو الإسلام ، ولاأدرى أيضا كيف لم يلحظ شريعتى المصير الذى لقيه بعض حكام أفريقيا الذين حاولوا الحفاظ على إسلامهم من تشنيع وتلويث ثم إقصاء ، وأفضل هؤلاء الحكام هم بالفعل الذين يتظاهرون بالفكر ووضع النظريات ، وهم أرحم حالا من المبجورات الذين انقلبوا فى يوم وليلة إلى جنرالات ثم سلطوا على شعوبهم بمساعدة الفرقة الأجنبية ، ويعمل التبشير العسكرى فى بلادهم على قدم وساق ، بينما يحرم المسلم فى بلاد غالبيتها من المسلمين من أبسط الحقوق المدنية ، ليس نيريرى وسنغور وكينياتا ذوى الروابط الوثيقة جدا بإسرائيل بالنماذج والمثل التى تضرب هنا ، بل هم من وجوه الاستعمار الجديد .

(٣) المترجم : جلال آل أحمد (١٩٢٨ ــ ١٩٧٤) كاتب وناقد وباحث إيرانى معاصر . بدأ ماركسيا فى حزب توده ، بعد متابعة التيار الثقافى عنده نموذجا لأزمة المثقف الإيرانى المعاصر ، خرج من حزب تودة بعد فشله فى التعبير عن الشعب الإيرانى ، ووجد ضالته فى الحركة الاسلامية التقدمية ، بعد كتابه « غرب زد كى : الابتلاء بالاستغراب » من أخطر الكتب التى كتبت عن الغزو الفكرى فى إيران المعاصرة . توفى فجأة فى كوخ له على بحر الخزر وفاة مشكوكا فى أمرها .

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

ولايعتبر واحدا منهم نمطا دينيا ، فهم من الشخصيات البارزة فى الحركة الفكرية العالمية ومن القادة المعادين للاستعمار فى العالم الثالث وممن ينعمون بقبول كافة الأجنحة . إذن ، على أساس هذه الدعوة نأتى إلى إيران ، فى مجتمعنا هذا ، وفى جيلنا هذا ، بين هذا الجيل وفى هذا العصر ، لنأت ولنطرح هذه القضية ، وعلى هذا الأساس ، حينما تطرح قضية العودة إلى الذات بالنسبة لى أنا المفكر الدينى وبالنسبة لك أنت المفكر العلمانى – وكلانا مشترك فى المسئولية الاجتماعية ، وقد بلغنا نقطة تفاهم مشتركة ، سوف تتبدل القضية من العودة إلى الذات إلى العودة الى ثقافة الذات ، وفى مسيرة هذه الدراسة ، سوف نصل إلى :

« العودة إلى الثقافة الإسلامية والأيديولوجية الإسلامية » وإلى الإسلام لاكتقليد أو وراثة أو نظام عقيدة موجود بالفعل فى المجتمع ، بل إلى الإسلام كأيدلوجية وإيمان بعث الوعى وأحدث المعجزة فى هذه المجتمعات ، ليس الأمر فى الحقيقة استنادا على دين موروث أو إحساس روحانى جاف . على أساس شعار المفكرين الذى طرح على المستوى العالمى ، وعلى أساس تلك القضية التى تناولها مؤلف كتاب « المسيح يصلب من جديد » [1] ، على أساس هذا الشعار نفسه أقول فى إيران « الحسين يستشهد من جديد » . أريد أن أوضح معنى « العودة إلى الذات » حسنا جدا ، هذا هو شعار الجميع ، شعار إيما سيزار فى أمريكا اللاتينية ، وشعار فرانز فانون مواطن جزر الأنتيل ، علينا أن نوضح الأمر بطريقة أخرى فى هذه المنطقة المتميزة ثقافيا وتاريخيا وجغرافيا ، وإلا أصبح شعار العودة إلى الذات شعارا مبهما وعمومية ذهنية ، كما أصبح اليوم ظاهرا فى صورة مبتذلة تهدف إلى إلغاء أصالة البشر الثقافية فى العالم كله من أجل إرساء دعائم المبدئية المطلقة لقيم الغرب .

فالغرب منذ القرن الثامن عشر يريد بمساعدة علماء الاجتماع والمؤرخين والكتاب والفنانين بل والثوريين والإنسانيين فيه أن يفرض على العالم النظرية القائلة بأن الحضارة واحدة هى هذا الشكل نفسه من الحضارة الذى صنعه

---

(١) ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية ، وأوصى كل الإخوان بقراءته . المترجم : وترجم أيضا إلى العربية ، ونشرته هيئة الكتاب .

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الغرب وعرضه على الدنيا قائلا : إن على كل من يريد أن يصير متحضرا عليه أن يستهلك الحضارة التى نصنعها ، وإذا أراد أن يرفضها فليظل وحشيا وبدائيا . والثقافة أيضا ثقافة واحدة هى ثقافة الغرب ، وعلى كل من يريد أن يكون صاحب ثقافة فى القرن العشرين أن يشترى الثقافة من الغرب كما يشترى البضائع من الغرب ، كما أن كل إنسان يريد أن يمتلك تليفزيون يشتريه من الغرب ويأتى به إلى منزله ، عليه أيضا عندما يريد أن يكون صاحب ثقافة ، وعندما يريد أن ينمى القيم الثقافية فى نفسه ، أن يقبل هذه الأنماط التى يفرضها الغرب ، وإلا فهو فاقد للحضارة والثقافة أى بدائى ووحشى . إذن : إما أن تبقى بدائيا أو متحضرا غربيا ، هذان هما المصيران المحتومان ، وعلى كل إنسان أن يختار واحدا منهما ، كل جهد الغرب فى القرنين الأخيرين كان مبذولا لخلق هذا الإيمان بالغرب وعدم الإيمان بالذات . ومن هنا يقول السيد موريس تورز إنه لايوجد شعب باسم الجزائر فى أفريقيا ، لكنه شعب فى حالة التكوين ، ذلك لأنه يريد أن يتجاهل تماما حضارة شمال أفريقيا العظيمة التى أخرجت منذ عدة قرون أعظم الفلاسفة وأعظم علماء الاجتماع فى العالم ومؤسس علم الاجتماع ، وحينما كانت هناك حضارة عظيمة فى شمال أفريقيا ، كان كل مالدى الغرب هو « أغانى رولان » وكانت آدابه عبارة عن أغانٍ شعبية تغنى للقوافل المسيحية المتجهة إلى بيت المقدس ، فى ذلك الوقت كان المكان الوحيد المتحضر فى أوربا هو أسبانيا ، التى كانت تلميذة مقلدة للمغرب أى شمال أفريقيا ، لكن هؤلاء يريدون محو كل الحضارات ، حتى يفرضوا على العالم أنماطهم التى صنعوها ، وكانت كل تلك الغارات والمذابح التى اجتاحت كل الأمم من الصين إلى مصر ، تلك الأمم التى صنعت حضارات عظيمة فى التاريخ .

بالنسبة للغرب ، تعد الزراعة الأحادية « أى الاقتصار على محصول واحد » من معالم الاستعمار ، لأن الاستعمار يعتبر نفسه سيد الدنيا ويعتبر العالم مزرعة له ، ومن هنا فإن توحيد المحصول فى دولة ما واحد من معالم الاستعمار ، فهو يرى على سبيل المثال أن كوبا تنتج قصب السكر جيدا ، فيأمر بأن تزرع كل الأراضى بقصب السكر ، وعندما لايجد الشعب فيها خبزا يأكله عليه أن يستورد القمح من أمريكا ، أو الشعب المسلم فى شمال أفريقيا ، مادامت لديه شمس ساطعة ، ينبغى أن تختفى كل محاصيله وأن يزرع الكروم فقط الذى

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

يستخدم فى تقطير الخمور ، ومن هنا نجد أنه عندما أمسك سكان شمال أفريقيا بزمام الأمور ، وجدوا كل أراضيهم قد زرعت بالكروم (بالرغم من أنهم جيمعا مسلمون ولايشربون الخمر أصلا وليس لديهم ما يأكلونه) .

وهناك تشابه لفظى دقيق وهو طريف جدا وهو ان كلمة culture الفرنسية تعنى المزرعة وتعنى أيضا الثقافة . وتوحيد الزراعة والحاصلات فى العالم الغربى ، وتوحيد الحضارة والثقافة والتاريخ فى الدنيا كلاهما من فعل الاستعمار ، وكما يقومون بتوحيد المحاصيل فى البلاد المستضعفة بحيث تموت جوعا إن لم تبع محصولها للغرب ، فمن ناحية « الزراعة المعنوية » أى الثقافة ينبغى أن تمحى كل مزارع العالم الثقافية ، التى كان فيها عبر عدد من القرون وعبر آلاف السنين مواهب بشرية وتجارب متنوعة ، وأنتجت فنونا متنوعة وأذواقا متنوعة وألوانا من الجماليات ومعنويات عظيمة وثقافات روحية ، كلها ينبغى أن تمحى وتأتى « جرارات » الاستعمار الثقافية فتحصد كل حضارات آسيا وأفريقيا وإيران وكل المجتمعات الإسلامية من أجل أن تزرع فيها الثقافة الغربية فحسب . وعلى الأمم مهما كان أصلها وتاريخها وحضارتها أن تكون جميعا فى صورة أوان خالية متشابهة لاتحتوى على شىء اللهم إلا حلق مفتوح ظامئ وفوهة خالية من أجل أن توصل فقط وفقط بذيل هذه الآلة الغربية التى تنتج الفكر وتنتج الاقتصاد فتمتصها ، من أجل أن تصير عامل استهلاك لاعامل إنتاج ، ومادامت الحضارة تعنى استهلاك منتجات الغرب ، فبالتالى كل من يستهلك منتجات الغرب يكون متحضرا ، ومن أجل أن يصيروا مستهلكين لإنتاج الغرب ، على الجميع أن يعتقدوا أن ثقافتهم المحلية وشخصيتهم المحلية غير ذات مفهوم ، وأنهم لايستطيعون بناء حضارة أو صناعة ثقافة ، وأن عليهم من أجل أن يكونوا متحضرين أن يقبلوا أدوات الغرب وأنماطه وقيمه . ومن هنا نرى أنه لايوصف إنسان فى مجتمعنا بأنه متحضر إلا إذا كثر استهلاكه ، وليس إذا سمت أحاسيسه وعواطفه ، أو يقال:إن طهران صارت أكثر حضارة بالنسبة للأعوام الثمانية عشرة السابقة لأن الناس فى سنة (١٩٥٥)كانوا منحطين لدرجة أنهم كانوا يستهلكون فقط سبعة عشر أو ثمانية عشر ظفرا صناعيا ، أما الآن فقد تضاعف هذا العدد خمسمائة مرة ، أو أن معدل سلعة أخرى قد تضاعف آلاف المرات أما أولاء

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الأمهات اللائى كن يربين أمثال « ستارخان »[1] وغيره فى حجورهن وكن يصبغن شعورهن بالحناء ، فقد كن غير متحضرات .

وهذا الشاب الأفريقى الذى كان يفخر بجواده وكلبه وغنمه قبل أن يدخل الاستعمار أفريقيا لم يكن متحضرا ، أما الآن وقد ذهب الفرنسيون إليهم ، فإن رئيس القبيلة وقد استبدل سيارة غربية بجواده ، يجلس إليها ويقودها وهو سعيد لأنه متحضر . وكان أحد السادة يقول : إن الله بالرغم من أنه أعطى هذا الأوربى المال والقوة والذكاء قد حكم عليه بأن يذهب إلى المناجم والمصانع وأن يصنع السيارات والآلات لينتفع بها المسلمون .

على كل حال ، ينبغى على الصينى واليابانى والإيرانى والعربى والتركى والأسود والأبيض أن يتحولوا جميعا إلى مخلوقات فارغة خالية ، مستهلكين محتاجين ، كل فخرهم وعظمتهم وتجلى إنسانيتهم ومثلهم فى الاستهلاك الغربى ... ومن هنا فعلى كل القيم والمفاخر الأخرى التى تنتسب إليها هذه الأمم أن تمحى ، بحيث يبلغ الانسان العظيم درجة يفخر فيها بسلعته المعدنية ، وينبغى أن تحدث كارثة دولية عظيمة حتى يفرغ هؤلاء البشر المرتبطين بكل المذاهب والتواريخ من ذواتهم . وإخلاء الذات مصطلح وجودى ، لكنه ليس من وجودية سارتر ، بل من هايدجر وياسبرز (ياسبرز وجودى دينى عظيم) اللذان أهتم بهما كثيرا . ماذا يعنى إخلاء الذات أو تفريغها ؟ يقول هايدجر : إن لكل إنسان وجودين ، أحدهما ال « أنا » كموجود حى فى المجتمع ، وبهذا الوجود يحسب من بين المجتمع ، وحينما يقال : إن تعداد إيران ثلاثون مليون نسمة ، فأنا واحد من أفراد هذا المجتمع الذين يشكلونه ، أحس أنى واحد من هذه الملايين الثلاثين . وبكل البشر سواء فى هذا الوجود ، كل منهم له قدر من الاستهلاك والوزن والقوام والذوق وأشياء أخرى ، وهذا هو الوجود المجازى للإنسان ، أما الوجود الآخر فهو – على حد قول هايدجر – الوجود الأصلى أو الحقيقى ، والوجودية قائمة على أساس هذا

---

(١) المترجم : ستارخان بطل من أبطال الحركة الدستورية (١٩٠٥ - ١٩١١) تصدى للقوات الروسية فى تبريز وقاومها عسكريا ، وزحف بقواته إلى طهران لانقاذ الدستوريين . انظر الثورة الإيرانية الجذور والأيديولوجية للمترجم .

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الوجود ، أى مبدئيتها هذا الوجود ، وذلك لأن الوجود البدائى الذى يوجد عند الجميع ، ويصنعه الوالدان بالتعاون معا هو الوجود الأول ، أما الوجود الثانى فهو لايوجد عند بعضهم أصلا ، وهو على درجات فيمن يوجد عندهم ، هذا الوجود الثانى وجود تصنعه الثقافة وتخلقه عبر التاريخ ، وهذا هو الوجود الحقيقى والواقعى والإنسانى عند الانسان . فالوجود المجازى هو الوجود الذى كون فى فترة العمر المكتوب فى بطاقة هويتى : ثلاثين سنة أو أربعين سنة ، لكن الوجود الحقيقى أو الأصيل هو الوجود الذى تبلور فى طول التاريخ وتكوين الثقافة وإبداع الفن وصناعة الحضارة ، ذلك الشىء الذى عندما أضعه أمام الثقافات الأخرى ، أمام الغرب أو الشرق ، أمام الأمريكى أو الأفريقى فيعطينى هوية ثقافية هو الوجود الثانى ، وبهذا الوجود الحقيقى أستطيع عندما أقف فى مواجهة الإنجليزى أو الفرنسى أو الأمريكى أو الصينى أن أقول « أنا » كما يستطيع هو أن يقول أنا ، ولكل منهما معنى يشير إلى وجود واقعى وعينى ومميزات وقيم محددة ، هذا هو الوجود الذى خلق على مر التاريخ ، ويتحقق فى الوجودات المجازية فردا فردا ، وليس التعليم والتربية إلا تدعيم الوجود الحقيقى وتربيته وتنميته فى الوجود المجازى ، وتربية تاريخ أمة ما وثقافتها داخل الأبدان المذكورة فى بطاقة الهوية ومزجها بها ، هذه الشخصية هى شخصية « الأنا » الإنسانية ، وهى التى تميزنى عن غيرى ، لكن ال « أنات » الأخرى سواء ، وتستطيعون أن تتصوروا شخصيات ما ذات وجود مجازى لكنها لم تكن قد منحت الفرصة بعد لبلوغ الوجود الحقيقى ، لأن الوجود الحقيقى من صنع يد الإنسان نفسه ، وعن طريق العوامل الثقافية والتاريخية لذاته التى يربى نفسه على أساسها ، ومن هنا يقول سارتر:إن الوجود المجازى من صنع الطبيعة أو الله وإننا بأنفسنا نصنع الوجود الحقيقى،الوجود الحقيقى هو ماهيتى وهويتى الإنسانية وشخصيتى الثقافية ، وكل من يملك شخصيته الثقافية الخاصة إنسان مستقل ومنتج ، والإنسان المنتج هو الذى يصنع الفكر والأيديولوجية والإيمان والحركة كما يصنع العربة ، وهذا هو مأقوله : مالم تصل الأمة الى مستوى الإنتاج المعنوى والفكرى والثقافى ، فإنها لن تستطيع أن تصل إلى مستوى الإنتاج الاقتصادى ، وإذا وصلت اليه ففى مستوى مايفرضه الغرب ، وفى صورة خادعة أى فى صورة استعمار جديد ، والإ فإن المجتمع

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

المنتج هو هو المجتمع الذى يفكر بنفسه ويخلق بنفسه مثله وذهنه وقيمه وفنونه ومعتقداته وإيمانه ووعيه الدينى وآراءه التاريخية والاجتماعية ونظامه الطبقى واتجاهاته الجماعية ، هذا المجتمع الذى يصل إلى الإنتاج الصناعى والاستقلال السياسى يصل إلى إنتاج رأس المال وإنتاج الحضارة المادية ، ومن هنا لايوجد مجتمع قط يرادبه ألا يصل إلى الإنتاج الاقتصادى الصناعى إلا وسلبت من أجياله فى البداية إمكانية الإنتاج الفكرى والذهنى ، ومن أجل ألا يستطيع جيل قط أن يصل إلى استقلاله فى مواجهة الغرب الحاكم المطلق على العالم ، ينبغى أن تدمر فيه كل قواعده الأساسية الإنسانية والثقافية التى تمنحه شخصية مستقلة للأنا الإنسانية الحقيقية وأن يحول إلى إنسان غث وفارغ مغسول ومكنوس ومدهون : مثل قبر الكافر مزدان الظاهر ، أما فى الباطن فغضب الله عز وجل .

يصف مولانا جلال الدين[1] هذا الصنف من الناس بأنه مثل قبور الكفار . فقبر المؤمن باطنه نور وظاهره خرب وقبر الكافر ظاهره زخرف وزينة وأحجار قيمة وباطنه قهر الله عز وجل ، وهذا النوع من البشر الذى يصنعه الغرب فى الأمم غير الغربية نوع مغسول ومكنوس ومدهون ومزدان فى ظاهره ، لكنه فى الباطن خال وغث ولا محتوى فيه .

وهناك نظرية جدلية عند سوردل تشير إلى العلاقة بين الشرق والغرب فى إطار الاستعمار الثقافى وفحواها أن : على الغربى ألا ينكر ثقافة الشرقى وتاريخه وشخصيته لأنه حينئذ يتخذ موقف الدفاع ، بل عليه أن يقوم بعمل يجعله يعتقد أنه مرفوض ويعتقد أنه عرق من الدرجة الثانية وأن الغربى هو الجنس الأعلى والدرجة الأولى ، وأن للغربى عقلا يفكر ويصنع وعلى الشرقى فقط أن ينظم الشعر وأن ينسج نظريات العرفان « التصوف » . ومن هنا فإن أغلب مستشرقينا يوجهون كل اهتمامهم لمخطوطات الصوفية عندنا ويحققون الواحدة منها عشرات المرات (فى حين أن ٧٩ ٪ من مخطوطاتنا العلمية تتحلل فى المكتبات وتأكلها الفئران ولايعلم عنها أحد شيئا) ، هذا من أجل أن يجعلوا الشرقى

---

(١) المترجم : مولانا جلال الدين محمد بن الحسين البلخى الرومى (٦٠٤ - ٦٧٢) شاعر الصوفية الأكبر . من أشهر أعماله : المثنوى « ترجم جزء منه إلى العربية على يد محمد عبد السلام كفافى » وديوان شمس الدين التبريزى .

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

يفهم أنه كان يهتم فحسب بالأحاسيس المجردة الأثيرية الغيبية ، وعليه عندما يعود إلى الحياة وينزل إلى الأرض أن يتبع نظمهم ، فهو محتاج إلى سلعهم الاستهلاكية . وقد قسموا الكون إلى قسمين : العالم المادى وهو ميتة وجيفة ويخص الغربى ، وعالم المعنى والأبدية وماوراء الطبيعة وكلها لك أيها الشرق ، (هكذا قسموا بين عالمى الشرق والغرب . إن فكرة القومية التى تظهر فى القرن العشرين ليست من قبيل المصادفة ، كيف تظهر هذه الفكرة الجاهلية فى القرن العشرين ؟ كانت معتقد العربى الجاهلى وجاء الإسلام وقضى عليها ، فكيف تبعث من جديد فكرة سمو الغرب وفلسفة الأنوية «اعتباره نقطة الانطلاق »؟ Egocentrisme والغربوية occidentalisme ؟) والجواب : من اجل أن فحوى أطروحة العرقية والعنصرية هو : أنه عندما يفهم الشرقى أنه من جنس أدنى فى الدرجة الثانية ويعتقد أن الغربى من جنس أعلى وفى الدرجة الأولى وصانع للثقافة ، فان علاقته به سوف تشبه علاقة الطفل بأمه ، علاقة من هذا الصنف سوف تقوم تلقائيا بين المستعمَر « بفتح الميم » والمستعمِر « بكسرها » ، فالمستعمر يسمى دولته « الوطن الأم » ، أما الآسيويون والأفارقة فهم أطفال مفتقرون إلى التربية عليهم أن ينشئوا فى حجره ، وفى جدلية سوردل تقوم هذه العلاقة : العلاقة بين الأم والطفل ، فالأم تنهر طفلها ، والطفل يلوذ بحضن الأم خوفا منها وطلبا للأمان ، وهذه الجدلية تمحو نفسها بنفسها وتصير عامل جذب وتبعية ، وعندما يحس الشرقى أنه غثاء وهباء ، منتسب إلى دين منحط ، وينتم إلى عرق ثقافته وجمالياته وفنونه وأشعاره ونظمه الاجتماعية وتاريخه وشخصياته التاريخية ومفاخره الماضية كلها منحطة وأنه لايملك شيئا قط ، يحس تلقائيا بالعار ، ويتهم نفسه بأنه من عرق منحط ، ومن أجل أن يدفع هذه التهمة عن نفسه ، يتشبه بالغربى ، حتى يقول بعد ذلك : لست من هذا العرق المتهم ، إننى من صنفكم ، ويتظاهر بأنه يشبهه ، يشبهه فى الحياة والسلوك والتصرفات والحركات والسكنات والزينة وأسلوب العيش ، ومن هنا فالتقليد ظاهرة نتجت عن جدلية سوردل فى العلاقة بين الشرقى والغربى .

العودة إلى الذات :

بناء على هذا : اليوم وقد أخرج الغرب كل البشر من قواعدهم الذاتية والثقافية ومن قدرتهم على التوالد الذاتى والانفعال الداخلى وجعلهم فى صورة

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

عبيد محتاجين أذلاء ضعفاء ملتصقين ومقلدين ، ماالذى ينبغى عمله ؟ الشعار الذى طرحه المفكرون فى الخمسة والعشرين عاما الأخيرة كآخر تجربة ثقافية مضادة للاستعمار هو العودة إلى الذات ، حسناً جداً لكن النقطة التى أريد أن أدق عليها هى : العودة إلى أى ذات ؟ ماتقوله إيما سيزار أو ماأقوله أنا فى إيران؟ ذلك لأن ذاتها تختلف عن ذاتى ، وحينما أقول أنا هنا ، أو تقول إيما سيزار أو فرانز فانون كمتعلم أفريقى أو من جزر الأنتيل : العودة إلى الذات ، فاننا هنا نفترق عن بعضنا ، فى حين أننا إذا أنحلينا من ذواتنا كما يقول ياسبرز فنحن ثلاثة من المتأوربين المتعلمين فى فرنسا ، وكل منا فى هذه الناحية يشبه الآخر ، لأننا كلنا مرتبطون فى هذا بالغرب ، وكنا كلنا مقلدين متشبهين ، لكننا الآن ونحن نريد أن نعود إلى قواعدنا الثقافية ، ينبغى أن يفترق كل عن الآخر . على كل منا أن يعود إلى منزله ، ولذلك على كل منا نحن المفكرين عندما نقول : « فلنعد إلى ذواتنا » وكلنا مشتركون فى هذا ، على كل واحد منا أن يطرح أمام نفسه هذا السؤال : أى ذات ؟ وهذه هى القضية التى لم تطرح فى إيران .

عندما طرح المفكرون الأفارقة قضية « العودة إلى الذات » ، كان الشعار الذى ينادون به مختلفا عن الشعار الذى ينادى به مفكرو العالم الإسلامى وإيران ، ففى أفريقيا طرح الاستعمار قضية الثقافة بصورة وطرحها فى الأمم الإسلامية والشرق المتحضر بصورة أخرى ، وماطرحه مفكرونا المعاصرون فى الخمس عشرة سنة الأخيرة هو تماما ترديد لأطروحة إيما سيزار وفرانز فانون وأمثالهما ، فى حين أن ترديدها بالنسبة لنا لايمثل علاجا للداء (بالرغم من أننى أؤمن تماما بهذه الأطروحة) ، وذلك لأن الغربى تحدث معنا-نحن المسلمين والإيرانيين والشرقيين-بأسلوب وتحدث مع إيما سيزار السوداء الأفريقية بأسلوب آخر . فهو يخاطب الجنس الأسود قائلا : إن عقلك لايمكن أن يصنع متحضرا ، فالأجناس فى الدنيا صنفان : جنس صانع للحضارة وجنس غير صانع للحضارة والجنس الذى لايصنع الحضارة يستغل لخدمة الجنس صانع الحضارة ويستعبد له . لكنه لايقول لنا : لستم من صناع الحضارة . بالمصادفة إنه يجاملنا كثيرا ويغر بنا حتى نخدع ونذوب خجلا . فقد جاء الغربيون وأنفقوا أعمارا من المشقة على نقوش حجارتنا حجرا حجرا ، وتعبوا ، واكتشفوا الآثار ،

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

وأعظم مؤلفاتنا ومخطوطاتنا طبعت فى لندن وباريس وقدمت على أنها أعظم آثار العالم الثقافية ، وللسيد « جب » موقف من أجل طباعة مخطوطاتنا القديمة ، إذن فهم يعتبرون تعظيم تراثنا من أعمال البر ، إذن فنحن لم نحقر ، بل إن الغربيين يعظمونا دائما ويهتمون بماضينا أكثر من اهتمامنا به . الغربى نفسه الذى يقول للزنجى المفكر : لست صاحب ماض ، كنت دائما عبدا ، عبدا للعرب أو للمصريين والآن أنت عبد للأوربى . إذن فماذا يصبح معنى العودة إلى الذات ؟ إنه يقول للأفريقى : لست صاحب حضارة ، لكنه يقول لنا : كنتم أصحاب حضارة . يقول له : إنك لاتستطيع أن تصنع حضارة ، لكنه يقول لنا : لقد صنعتم حضارة ، من هنا أنكر على الأفريقى حضارة ماضية ، أما بالنسبة لنا فقد مسخ ماضينا والمسخ أسوأ من الإنكار ، ليته قال لنا : لم يكن لكم فى الماضى دين عظيم ، ولم يكن لديكم حضارة أو علم أو كتاب أو آداب ، لم يكن لديكم شىء قط ، حتى نثبت لجيلنا أننا كنا نمتلك كل شىء ، إنهم لم يفعلوا ذلك . إننى حين أقول الماضى فلست أقصد الماضى الذى قبر ، بل أقصد الماضى الذى لايزال يوجد ، الماضى الذى هو «كلاسية»حية والذى هو محسوس الآن نحيا به . هذا الماضى نفسه الذى يصنع شخصيتنا الثقافية والذى ننطلق منه ، أجل ، الماضى نفسه الذى مسخوه أمام عيوننا ويصورنه فى صورة سوداء منحطة ومقززة وقبيحة ، إنه يقول لإيما سيزار : ليس لديكم شىء قط ، ويقول لنا : لديكم كل شىء ، لكنه يصور أمام عينى سحنات مقززة بحيث أهرب من هذه السحنات نفسها إلى أحضان الغربى . والآن لماذا لايواجه الشاب الأفريقى مشكلة الهرب من القديم أو الرجعية أو الهرب من الماضى ؟ المفكر الأسود يفخر ببساطة بكونه أسود وبكونه أفريقيا وحتى بكونه قبليا ، هذا بالرغم من أن ماضى الأفريقى ليس ماضيا يبعث على الفخر [1] فى حين أن المتعلم الايرانى المسلم الشرقى لا يشبه الايرانيين أصلا ولا يشبه المسلمين أصلا ، انه يهزأ بكل شىء ويتظاهر بالتفرنج .

---

(١) المترجم : تعد أفريقيا الشرقية والوسطى حضاريا جزءا من الحضارة الإسلامية ، وقد دامت إمبراطورية مالى الإسلامية ثلاثة قرون ، وكانت (تمبكتو) عاصمتها حاضرة من حواضر الإسلام شأنها شأن بغداد ودمشق ، كما كانت شنقيط الى عهد قريب جدا مركزا لعدد كبير من المشايخ خدموا العلوم الإسلامية . والعلاقة بين إيران وشرق أفريقيا علاقة حضارية وثيقة جدا ظلت دائمة لعدة قرون ، ولاأدرى كيف صدق

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

كان أحدهم قد جلس إلى جوارى فى الطائرة ، فقلت له : أعطنى جريدتك ، ورأيت أن لهجته قد أصبحت أوربية بحيث لايستطيع الحديث معى ، وقلت فى نفسى : بالقطع من كثرة مأأقام فى الخارج نسى الفارسية ، ولكن بعد ذلك كان أحد الأوربيين يطلب منه شيئا فرأيت أنه أيضا لايعرف لغة أجنبية ، انظروا إلى التظاهر . كم رأينا من الناس قضوا سنتين أو ثلاث سنوات فى أوربا وبأى فخر يقولون إنهم نسوا الفارسية ، وأنا أرد عليهم قائلا : أيها الأحمق ، وأنت على هذا القدر من الاستعداد بحيث تنسى فى ثلاث سنوات اللغة التى تعلمتها فى خمس وعشرين سنة ، كيف إذن تعلمت اللغة الأجنبية فى ثلاث سنوات ؟ لماذا هذا التظاهر ؟ مم تخاف ؟ إنه يخاف من نفسه ، إنه ضائق بنفسه وبكل ماتنسب إليه نفسه وبكل مايذكره ومن يذكره بانحطاطه وقبحه ، إنه ممتن لكل من لايذكره بنفسه ، يهرع إليه ويفخر بصداقته أو التظاهر بصداقته ، لأنه لايعلم العرق الذى ينتمى إليه .

هذه الذات لماذا إلى هذا الحد قبيحة أمام عيوننا ومنفرة ، بحيث إن كل من ينتسب إليها وكل من ينتسب إلى ثقافتنا أو ماضينا ، وكل من ينتسب إلى ديننا حتى كعقيدة وحتى فى صورة تخصص علمى يتهم بين نسل الشباب لماذا عندما يطرح مفكر هنا شخصية أبى ذر الغفارى – وهو شخصية لو طرحت اليوم فى أوربا لاعتبرته القوى التقدمية فيها كشخصية ثورية وتقدمية عظيمة ــ يتهمه الشباب هنا وجيل المفكرين بعبادة الماضى ؟ لكن إذا جاء هذا الشخص نفسه وترجم أغانى « بليتس » البغى اليونانية إلى الشعر الفارسى فسوف يقدم كشخصية عصرية وتقدمية ومستنيرة لماذا يقوم جيلنا من المفكرين وهو ملتزم وذو أيديولجية يفكر فى مصير مجتمعه وذو التزام اجتماعى وطبقى بإنفاق كل حياته فى قضية الشعر الجديد والشعر القديم والفن للفن أو لغير الفن والسيد يونسكو والسيد جوزيف دو كاسترو ، ليست أبحاث اجتماعية هذه التى يقوم

المفكرون الأفارقة هذه الفرية القائلة إن أفريقيا لم تكن ذات يوم مركز ثقافة وحضارة ، ولم يفطنوا إلى أن هذه الأكذوبة قد وضعت خصيصا لفصل افريقيا عن العالم الاسلامى ، وإفهام الأفارقة أنهم كانوا مجرد عبيد للعرب لتبرير عبودية أوربا لهم وضرب الإسلام من الظهر ومن هنا نرى شريعتى يعتبر أفريقيا جزءا منفصلا عن العالم الإسلامى ، وإن صدق هذا على جنوبيها فهو لايصدق على شرقها ووسطها وشمالها

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

بها مفكرونا بل هى أقذر أنواع الهيروين التى تزرق فى دماء هـذا الجيـل مـرة ثانيـة؟، لماذا يتظاهر هذا المفكر الذى يعتبر نفسه ملتزما صاحب رسالة ومسئولية بقراءة بيكيت فى حين أن بيكيت ليس سوى « بوق عليشاه »[1] على الطريقة الغربية ؟ وهو عامل التخدير نفسه الذى حقنوا به دماء الإيرانيين فى القرنين السادس والسابع الهجريين ليسمموا هذا الدم ، فهم يستوردونه اليوم على صورة لعبة بيكيت ، وعن طريقها يتظاهر مفكرونا أصحاب النظرة الطبقية والأيديولوجية العلمية ، وكل مافى الأمر أن بيكيت إنسان لاعلاقة له بى ولا بتلك الذات ، أما أبوذر بالرغم من أنه رجل ثورى من الناحية الإنسانية والاجتماعية وحتى الطبقية ومنطلقه منطلق طبقى ، فلأنه منسوب إلينا ، منسوب إلى تلك الذات ، علينا أن نهرب منه . من هنا قاموا بمسخ ماضينا أمام عيوننا ، لكنهم بالنسبة للأفريقى محوا ماضيه تماما .

ذات مرة عقد فى مشهد مؤتمر لتعليم الدين حضره معلمو الدين من كل الأقاليم ، ودعيت لإلقاء محاضرة ، فقلت : سوف أحدد موضوع الحديث من البداية فإن قبل سوف ألقى المحاضرة . وسألونى : ماهو ؟ قلت : بحث بشأن اقتراح إلى وزارة التعليم وتنفيذه سهل جدا ولايريد خبيرا ولاتلزمه ميزانية وهو إلى جوار ذلك أعظم خدمة للإسلام وهو : أن تلغى برامج تعليم الدين فى المدارس ، وتوضع الرياضة البدنية محله . لأنه إن لم يوجد شىء يمكن أن يقال بعد ذلك للسادة المتخرجين والمتخرجات شىء عن الدين ويقال لهم : هذا هو الدين ، وهذه هى الرؤية وهذا هو الوعى ، والخريج سوف يفهمها بدوره على أنها قضايا جديدة ، لكن : ماالذى يجرى الآن عندما تطرح قضية الدين ؟

كنت ذات مرة أقدم بحثا عن الإمامة فى ميدان علم الاجتماع وفلسفته فى « الكوليج دى فرانس » ، والبحث عن الفلسفة الشيعية والمكان كنيسة الجزويت ، وعندما انتهيت من إلقاء البحث فى الكنيسة ، طلب منى الحاضرون أن أواصل الحديث فى جلسة أخرى ، وهكذا استمرت الجلسة إلى الصباح .

---

(١) المترجم : يضرب بوق عليشاه فى الفارسية مثلا على الحديث ظاهر الجد والذى يبدو أنه يحتوى على فكر فى حين أنه لايعدو مجرد شقشقة لسان أو تخريف تحت تأثير مخدر ، وعليشاه علم على الدرويش الذى لايعى مايقول .

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

وفى بيئة جامعية مثل الكوليج دى فرانس عندما طرحت قضية الإمامة كان كل الماركسيين والاشتراكيين والوجوديين والكاثوليك والمتدينين وغير المتدينين يفهمونها كفلسفة علم الاجتماع السياسى ويستطيعون إدراكها . لكنى عندما أتحدث فى مجتمع إيران الدينى يكون ماحدث هو العكس تماما ، وإذا كنت فى جامعة طهران فإننى أستطيع أن أنطلق من الدين أكثر مما أستطيع فى جامعة مشهد ، وإذا كنت فى كلية الهندسة أستطيع أكثر أن أتناول قضايا دينية ، ويستطيعون فهمها أكثر مما أكون فى كلية الآداب أو فى كلية المعقول والمنقول .. عندما قلت فى الكوليج دى فرانس فى جامعة السوربون أن رجلا بطلا فى ثورة كربلاء ، كان وفيا إلى هذا الحد ، وجاهد إلى هذا الحد ، ولعب دوره بهذا الشكل ، ومات برجولة بهذا الشكل ، صفقوا لى ، (لأنهاأمورلم تمسخ فى أذهانهم كما مسخت فى أذهان هؤلاء) .

وبالنسبة لثقافتنا يوجد سوء الفهم المسبق نفسه ، وليتها لم تمسخ ، ليت الأوربى كان قد قال لنا : إنكم لاتملكون ثقافة وأدبا وعرفانا وحضارة ودينا ، إذن لكنا قد اكتشفناها وأعدنا جيلنا إليها بكل احتياجاته وبكل شعوره وبكل وعيه . لكننا الآن عندما نريد الحديث تفيض العيون والأحاسيس والمشاعر بالكراهية ، ثم نفر نحو الأنماط الغربية ، ومن هنا على إيما سيزار أن تقول : لنعد إلى ذواتنا وأنفسنا ، أما أنا فينبغى أن أقول : إلى أى ذات ينبغى أن نعود ؟ أينبغى أن نعود إلى هذه الذات الممسوخة التى علمونا إياها ؟ لا ، لايمكن العودة إليها . ماهو عبادة للتقليد وعبادة للقديم ورجعية ليس جديدا .

ألا تعلمون أنه توجد الآن حركة عودة إلى الذات؟، ذات يوم ذهبت لزيارة أحد السادة العصريين جدا الذين قاموا بالعودة إلى ذواتهم ، وهناك رأيت أنه وضع عراقة حمار « مايوضع تحت السرج » أمام حجرة الضيوف فى منزله ، قلت : أيها السيد المحترم ، هل هذا يعنى العودة إلى الذات ؟ لماذا وضعت عراقة الحمار هنا ؟ ينبغى أن تضعها أمام غرفة نومك ، هذا النوع من العودة إلى الذات عودة إلى الذات على الطريقة الأمريكية ، منذ أن جاءوا واشتروا هذه العراقات واشتروا أيضا الخرز البدائى قبيح الشكل وعلقوه فى رقاب زوجاتهم ، اكتشفنا أنفسنا ، انظروا إلى الاستحمار ، الاستحمار الجديد :

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

اذن : الى أى ذات نعود ؟ إلى أى ذات ؟ هل نغرق فى مفهوم وهمى مطلق يسمى : الإنسانية؟أو العالمية اليوم كذبة يراد بها محو الشخصية الثقافية الحقيقية للجميع ، حتى تَمْحِى فى إنسانية وهمية كاذبة لا وجود لها ، إن الإنسانية تعنى اشتراك كل الامم فى معنى واحد وفى حقيقة واحدة أى اشتراك الإنسان خاوى الوفاض مع الإنسان الرأسمالى ، اشتراكنا نحن المحليين المفرغين من ذواتنا والمفترقين إلى ثقافة معك أنت الذى يعد كل وجودك ملكا لك ، وحينذاك سوف تكون العلاقة بيننا علاقة السيد بالتابع ، علاقة أحد طرفيها مفلس وعامل وأداة والطرف الآخر غنى ورأسمالى . ومن هنا فالغربى فقط هو من له وجود ، أو بتعبير سارتر : يوجد فقط خمسمائة مليون من البشر ومليارات ونصف من

المحليين ، وبتعبير الاستعمار : الفرق بين الإنسان والمحلى هو الفرق بين الغربى والشرقى . إذن : إذا أراد الشرقى أن يكون شريكا مع الغربى على أساس « الإنسانية » يكون قد أذاب نفسه وشخصيته الحقيقية فى نظام وهمى عابد للبشر وكاذب وخيالى ، ومحا شخصيته الأصيلة وأصالته الذاتية ، وطالما ظللنا على حد قولهم محليين وهم بشر ، يعد أى نوع من الشركة الإنسانية معهم خيانة لوجودنا، وعلينا أن ننفصل عنهم وأن نتقيهم ، لأن علاقتهم بنا لاتعدو علاقة المستعمر بالمستعمر ، وأية علاقة يمكن أن تكون هذه ؟ علاقة من يمتص بمن يمتص « بضم الياء » ، بين من يقوم بالإنتاج وبين من ينبغى عليه أن يستهلك ، بين من ينبغى أن يتحدث ومن ينبغى أن يسمع ، بين من عليه أن يتحرك وبين من عليه أن يتبع ويقلد ، علاقة بين قطبين متنافرين ، ومن ثم فهى ليست علاقة فى الحقيقة بل رباط كاذب لاوجود له ، مثل علاقات من قبيل العرقية والأخوة الوطنية ... وكل هذه علاقات كاذبة يراد إقامتها بين قطبين عدوين متنافرين لصالح القوى ولضرر الضعيف ، هذه ليست علاقة وإن وجدت فهى عداوة ، فمن المسلم به أن الدودة التى تمتص تكون شريكة فى دم الإنسان الذى تقوم بامتصاصه ، هذه الشركة فى الدم شركة بين عدوين .

على كل حال ، هذه الروابط روابط عداوة يريد الاستعماريون إقامتها باسم العرق أو القومية أو الدين بين القطبين العدوين فى العالم : الاستعماريين والمستعمرين ، وذلك الذى يعتبر نفسه انسانا ويعتبرنا محليين ، ويعتبر نفسه

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

عقلا ويعتبرنا نحن إحساسا وشعورا كيف يمكن أن يكون على علاقة معنا ، مثاله برتراند راسل « ولست أتحدث عن مستغل أو استعمارى عالمى بل أتحدث عن أحد المناضلين فى سبيل الحرية المشهورين عالميا » ، إنه يقول : النفط ملك الحضارة ، ليس ملك حسن أو حسين أو قبيلة كذا أو شعب كذا ، ملك الحضارة وملك الصناعة وملك البشرية ، ماهى الخلاصة من هذا القول؟إنه يريد أن يقول : إنه ليس ملكا لكم ، إنه ملك من يستطيع استهلاكه من أجل الإنسانية ، هل تستطيعون استهلاكه ؟ أبدا ، إذن فهو ملكنا . وهذه هى علاقتنا بالغرب فى ظل الإنسانية . إذن الى أى ذات نعود ؟

إذا عدت الى أى ذاتى القومية ، فإننى سوف أسقط فريسة للعرقية والفاشية والجاهلية القومية وهذه عودة رجعية . لاأريد أن أقول : الفضل عند الإيرانيين فحسب ، لكنى أريد أن أقول إن تاريخى يدل على أننى فنان وعلى أننى صنعت فنا ، أريد أن أقول إننى انسان وإننى تركت فى التاريخ علامات تدل على أننى إنسان وخالق فنون ، وعلى أننى خالق نبوغ . ومن ثم : إذا كان فى الأمر عودة إلى العرق فهى عرقية وفاشية ونازية ، نوع من الشوفينية الجاهلة الحمقاء ، عودة إلى نوع من القومية المحلية وعودة إلى قلاع عبادة التقليد بضيق أفق ، عودة إلى الجمود القومى والقبلى . لانريد أن نعود إلى العرق . لانريد آن نعود إلى القلاع المحلية الكلاسية ، ولانريد أن نسوق الإنسان إلى عبادة الدم والتراب ، فقد جاء أربعون ومائتان وألف من الأنبياء يدعون هذا الإنسان المتكبر العنيد إلى عبادة الله مظهر الجمال المطلق ، وهو لايطيع ، والآن نريد كمفكرين أن ندعوه إلى عبادة التراب لا . هل العودة الى الذات تعنى العودة إلى ذاتنا الثقافية والمعنوية والإنسانية التى اكتشفنا أنها تبلورت فى حضارة ما أو فى عصر ما ، أو فى دين ما أو فى ثقافة ما فى عصر خاص ؟ إننا نملك ذاتا قديمة ترجع إلى العصر الأكمينى أو العصر الساسانى أو العصر الأشكانى وعصور قبلها ، فهل نعود إليها ؟ انتبهوا من فضلكم إلى هذه النقطة لأنها آخر ما أتحدث فيه ، وهى نقطة حساسة جدا . هذه الذات ذات قديمة وعتيقة ذات سجلت فى التاريخ ، ذات قطع أمد طويل من القرون علاقتنا بها ، تلك الذات الأكمينية القديمة ذات موجودة فى التاريخ يستطيع المؤرخون وعلماء الاجتماع وعلماء الآثار والعلماء

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

عموماكتشافها وقراءتها وفهمها (١) لكن أمتنا لاتحس بأن هذه الذات هى ذاتها ، وليس لشخصيات تلك الفترة أو أبطالها أو مواهبها ومفاخرها وأساطيرها حياة أو حركة أو نبض بين أهلنا ، فقد جاء « مقص » الحضارة الإسلامية ووضع حدا بين ذاتنا قبل الاسلام وذاتنا بعده ، بحيث أصبحت ذاتنا قبل الإسلام قابلة للرؤية والدراسة على أيدى العلماء المتخصصين فى المتاحف والمكتبات فحسب ، وأمتنا لم تعد تذكر عنها شيئا قط ، انظروا إلى النقوش والآثار التى توجد بين الناس عندنا أى نوع من الإحساس عندهم بالنسبة لها ؟ وكيف يعرفونها وماذا يعتبرونها ؟ إنهم يقولون إنها من كتابة الجن . وهذا يجعلنا نعلم أنه لاتوجد بينهم وبينها أدنى علاقة . الخلاصة : إن هذه العودة إلى الذات التاريخية التى ندعو إليها ، لاتعنى العودة إلى عراقة الحمار ، بل هى العودة إلى الذات الموجودة بالفعل والموجودة فى قلب المجتمع وفى وجدانه ، تصير مثل مادة ومنبع من منابع الطاقة ، تفتت على يد مفكر وتستخرج وتحيا وتتحرك ، هى تلك الذات الحية . ليست تلك الذات العتيقة القائمة على عظام نخرة ، هى تلك الذات القائمة على أساس الإحساس العميق بالقيم الروحية والإنسانية عندنا ، والقائمة على أرواحنا واستعداداتنا ، والموجودة فى نظرتنا إلى الأمور ، لكن الذى صرفنا عنها هو الجهل والانقطاع عن النفس ، وجعلها الجذب إلى ذوات أخرى مجهولة ، لكنها على كل حال لاتزال حية ذات حياة وحركة ، وليست كلاسية ميتة تتبع علم الآثار .

هذه الذات تنبع من صميم الناس ، فهل هى ذات دينية ؟ هل هى ذات إسلامية ؟ أى إسلام ؟ وأى مذهب ؟ أهو المذهب الشيعى ؟ هنا أقول : نعم ، ثم أقول على الفور : أى تشيع ؟ نحن نعلم أن هذه الذات الثقافية عندنا ذات تجلت

---

(١) هذا يمكن الرد به أيضا على دعاة الفرعونية ، أولئك الذين يتجاهلون ألف عام وأكثر من الحضارة الحية المستمرة المؤثرة ، ويجاهرون بإثم يبلغ القول أن الدعوة إلى التوحيد خرجت من مصر فى عهد الفرعون اخناتون وعلى يده ، وأن مصر فرعونية الحضارة والجنس . حقيقة أن الفراعنة تركوا لنا آثاراً ملء السمع والبصر ، لكن ماهو تأثيرها الفعلى على المصريين المعاصرين ؟ وماذا نملك الآن ما يمكن أن يسمى فرعونيا من مقومات الحضارة والثقافة؟: هل نملك كتابا واحدا فى الطب أو الأخلاق أو الأدب أو الشعر أو الفلسفة . ؟ الخ ، هل نملك شبه رؤية كونية عن الفراعنة ؟ هل نملك تصور الدين متكاملا إلا عبادة العجول والفراعين ؟ هل نعرف لغتهم ؟ حتى الآثار العظيمة فى الصعيد ، أليس السكان هناك لا يزالون يسمونها « المساحيط » ؟ . المترجم .

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

فى العالم كذات عظيمة عن طريق جامعاتنا الموجودة فى الألف سنة الأخيرة وفى آدابنا طوال الألف سنة الأخيرة ، وعن طريق مفاخرنا وتاريخنا وحضارتنا ومواهبنا واستعداداتنا المتنوعة من عسكرية ورياضية وعلمية وفلكية وأدبية وعرفانية فى هذه الألف سنة أو الألف ومائة سنة الأخيرة ، بحيث أستطيع أمام أوربى ينتسب إلى عصر النهضة أن أقول له : إننى فرد منتسب إلى ثقافة اسلامية عظيمة وهؤلاءالبشر ، وهذه الشخصيات ، وهذه الحضارة والشخصية وهذا الاستعداد للتوالد والخصب والمواصلة فى وفىّ حضارتى ، لكن المهم هو : أى إسلام وأى مذهب ؟ هل هو ماهو موجود الآن ؟ هل هو ماهو موجود الآن فى صميم المجتمع بصورة تكرارية وعفوية ؟ إن العودة إليه من قبيل تحصيل الحاصل .

والآن يعيش قومنا على أساسه ويعملون ، ويؤمنون به ، لكن لافائدة منه قط ، بل إنه فى الوقت نفسه عامل من أهم عوامل الركود فيهم ، وعامل من عوامل عبادة التقليد وعبادة الجهل وعبادة الأشخاص وعبادة الماضى وتكرار ماهو مكرر . إن ماهو موجود الآن باسم الدين يرد البشر ، ليس عن مسئولياتهم الفعلية فحسب ، بل ويمنعهم عن الإحساس بأنهم مخلوقات حية فى الدنيا . هذا الدين نفسه الموجود لايستطيع أن يواجه الناس بحساسياتهم ومشكلاتهم .

ومن هنا نرى أنه من على بعد ألف كيلو متر يكتب أحدهم : سيدى : إن لدى مشكلة عويصة لى عدة أيام أبحث عن حلها ، والآن انظروا ماهى مشكلته ؟ إنه يقول : إننا حين نقول أن آدم وحواء هما أول البشر ، وهما أول من ولد بشرا ، فكيف تزوج أبناء حواء وآدم وبناتهم وهم إخوة ؟ وكأنما يريد أبناء حواء وآدم وبناتهما الزواج الآن ، والمأذون لم يرض والأمور معطلة ، أجل ، هذا هو الدين نفسه الذى نقل المشكلات والمثل والتفكير من مرحلة ماقبل الموت إلى مرحلة مابعد الموت ولاشأن له بهذه الدنيا . مع هذا الدين يقوم الإنسان بكل مايقوم به من عمل من أجل الآخرة ، أما بالنسبة للدنيا فلا إحساس بمسئولية أبدا ، لا من أجل نضجه ولا من أجل حياته الاجتماعية ولا من أجل القيام بمسئولياته . هذا الدين نفسه الذى يعتنقه كل مفكر اجتماعى ويعرفه .

والان أقولها كلمة صريحة : إن منطلقنا هو الذات الإسلامية نفسها ، وينبغى

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

أن نجعل شعارنا هو العودة إلى هذه الذات نفسها، لأنها الذات الوحيدة القريبة منا من بين كل الذوات ، وهى الثقافة الوحيدة التى لاتزال حيه حتى الآن ، وهى الروح والإيمان والحياة الوحيدة فى المجتمع الآن ذلك المجتمع الذى ينبغى للمفكر أن يعمل من خلاله ويعيش وينبض . لكن ينبغى أن يطرح الإسلام بعيدا عن صورته المكررة وتقاليده اللاواعية العفوية وهى أكبر عوامل الانحطاط ، بل ينبغى أن يطرح فى صورة إسلام باعث للوعى تقدمى ومعترض ، وكأيديولوجية باعثة للوعى وقائمة بالتنوير ، حتى يبدأ من هنا هذا الوعى ، وهو مسئولية المفكر دينيا كان أو علمانيا ، وذلك من أجل العودة إلى الذات ، والبدء من الذات ، بحيث ترسخ على أكثر الأسس عمقا فى واقعنا الروحى وشخصيتنا الحقيقية الإنسانية ، لأنه حى وموجود فى قلب المجتمع ، ويتغذى من هذا الكنز ويقف على قدميه ، وفى الوقت نفسه وعن طريق تغيير ما ، يتحول الإسلام من صورة تقليد اجتماعى إلى صورة أيديولوجية ، ومن صورة مجموعة من المعارف العلمية تدرس إلى إيمان واع ، ومن صورة مجموعة من الشعائر والطقوس والأعمال التى تؤدى لنيل ثواب الآخرة إلى أعظم قوة تهب الإنسان قبل الموت المسئولية والحركة والميل إلى التضحية ، ويتحول إلى استخراج مادة عظيمة تستخرج الوعى والعشق من صميم هذا المجتمع ، ويقوم المفكر بمعجزة « بروميثيوس » فى جيله ، ويبدى المعجزة المتولدة من الوعى والإيمان عن طريق هذه الطاقة ، فيتبدل الجمود فجأة إلى حركة والجهل إلى وعى ، وهذا الانحطاط الذى دام بضعة قرون إلى بعث وحركة ونهضة يؤدى إلى مايشبه القيامة ، وبهذا الشكل يعود المفكر سواء كان دينيا أو علمانيا إلى ذاته الواعية الإنسانية القوية ، ويقف فى مواجهة الاستعمار الغربى ، وبقوة الدين يوقظ مجتمعه ، ويحركه فيقف على قدمه إنسانا منتجا ، فى صورة جيل يواصل حضارته وثقافته وشخصيته المعنوية ، ويجلى بنى جنسه جميعا واحدا واحدا فى صورة « بروميثيوس » يأتون بالنار الإلهية إلى الأرض .

والسلام

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous